

الحجاج في الخطابات الضمنية لرسائل إخوان الصفاء رسالة الطريق إلى الله أنموذجا***Argumentation in implicit discourses in the Epistles of Brethren purty:
the Epistle on the path to god as an example***شهرزاد بوعروج^{1*}، عبد القادر خليف²¹ جامعة الشهيد الشيخ العربي التبسي تبسة (الجزائر)، chahrazad.bouarroudj@univ-tebessa.dz² جامعة الشهيد الشيخ العربي التبسي تبسة (الجزائر)، abdelkader.khelif@univ-tebessa.dz

مخبر الدراسات الإنسانية والأدبية

تاريخ القبول: 2025/11/11

تاريخ الاستلام: 2025/09/17

ملخص: تهتم التداولية بموضوع الحجاج كونه مجالا خصبا للاستعمال اللغوي؛ حيث يصاحب إنتاج اللغة مقصد الإقناع ورسالة الطريق إلى الله مثلت منتجا حجاجيا، بين إخوان الصفاء ومتلقي خطاباتهم، وكان بناء هذا الخطاب بين صيغ صريحة، وأخرى ضمنية، لذلك تناولت هذه الورقة البحثية هذه الرسالة بالتحليل لكشف الأبعاد الحجاجية للإشارات وتحليل البنى الحجاجية وكيفية تراتبية السلم الحجاجي، والهدف من ذلك كشف المقاصد الخفية عبر تحليل آليات اشتغال اللغة في الخطاب فتبين أن خطاب الإخوان تميز باللين من خلال تجلي مبدأ التودد في توجيه الخطاب، كما غلب على الرسالة أسلوب الضمني، وعرضت المقدمات المشكلة لمراتب في السلالمة الحجاجية في شكل ثنائيات ضدية؛ أي أن كل سلم حجاجي له ما يناقضه وعليه كانت نتائج كل بنية حجاجية ضمنية تفهم من سياق الطرح.

الكلمات المفتاحية: إخوان الصفاء؛ التداولية؛ الحجاج؛ الخطاب؛ الضمني.

Abstract: Pragmatics engages with argumentation as a domain richly suited to language usage, for language production is inherently accompanied by the aim of persuasion. The Epistle on the Path to God functioned as an argumentative text, mediating between the Brethren of Purity and the audience of their discourses. This combined both explicit formulations and implicit ones. Accordingly, the present study analyzes the message in order to uncover the argumentative dimensions of deixis, to examine argumentative structures, and to identify the hierarchical argumentation. The aim of such study is to bring to light the hidden purposes that emerge through the operation of language within discourse. It became evident that the Brethren's discourse was marked by gentleness, as seen in the principle of endearment guiding their discourse. The epistle is largely dominated by implicit strategies, presenting premises in the form of contradictory dual, such that each hierarchical argumentation being countered by its opposite. Thus, the conclusions of every implicit argumentative structure must be understood in light of its discursive context

Keywords: Argumentation; Brethren of purty; Discourses; Pragmatics; Implicit.

مقدمة

شهدت الساحة العلمية في العصر العباسي وحصرًا في عصر المأمون تطورًا كبيرًا بعد انشائه لدار الحكمة، إذ ترجمت العديد من المؤلفات، وهوما كان سببًا في انفتاح العقل العربي للاطلاع على ثقافات الأمم الوافدة إلى الأقطار العربية فنشطت بذلك حركة التأليف والتدوين، وفي الوقت ذاته عُدَّ ذلك الزمن بداية الانهيار السياسي والتفكك الاجتماعي بسبب نشوء دويلات داخل دولة وبذلك تعددت التوجهات الفكرية والمذهبية.

في ظلّ هذا التنوع ظهرت جماعة إخوان الصفاء وخلان الوفاء وهي جمعية سرّية عمد أصحابها إلى إخفاء أسمائهم، لسببين أولهما زهدهم في نيل الشهرة والثاني أن لا تطالهم أيادي الحكام، وهم يرون في أنفسهم حركة إصلاحية بالسعي إلى إحداث التغيير عن طريق نشر الوعي بين أطراف المجتمع لذلك ألفوا كتابًا موسوعيًا أسموه "رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء" تنوعت فيه الموضوعات بين رياضيات، وعلم الفلك، وفلسفة، وسياسة وما يميز هؤلاء عدم معاداتهم أي علم و أيّ منهج أو مذهب فسعيهم كان استغراق كلّ المذاهب عن طريق الجمع بين جُلّ العلوم والتوفيق بينها.

حملت رسالة الطريق إلى الله جملة من التوجيهات جاءت في شكل خطابات ذات أبعاد حجاجية، والجدير بالذكر أنّ الحجاج يتعالق وكل خطاباتنا، لذلك عُدَّ أحد أهم القضايا التي أولتها التداولية اهتمامها وتنوعت صيغ الحجاج بين الصريح، والضمني، وهدفنا هو تبين مدى فاعلية الخطابات الضمنية في تحقيق الإقناع. وسيكون مقالنا محاولة للإجابة على التساؤلات التالية :

✓ كيف تشكلت البنى اللغوية الحجاجية؟

✓ وكيف ساهم توظيف الإشارات في تمييز الخطاب ؟

✓ وما عماد السلالم الحجاجية؟

وقد اتبعنا المنهج التداولي كآلية للتحليل بعد عرضنا لجملة المفاهيم النظرية والتي تمثل كلمات مفتاحية للورقة البحثية.

أولاً: مفاهيم نظرية:

1_ الخطاب :

شاع استخدام مصطلح الخطاب وكثر استعماله في مجالات معرفية، فتعددت مفاهيمه بتعدد استخدامه والتخصصات التي وظفته.

1_1 الخطاب في الثقافة العربية:

تناولت شتى العلوم العربية مصطلح خطاب كعلم التفسير وعلم الأصول وعلوم اللغة فنجد الزركشي (ت794هـ) يعرفه بقوله: "عرفه المتقدمون بأنه الكلام المقصود منه الإفهام من هو متهيء للفهم، وعرفه قوم بأنه ما يقصد به الإفهام أعم من أن يكون من قُصد إفهامه متهيئًا أم لا." (الزركشي، 1992، صفحة 126)

يتبين الفرق بين التعريف الأول والثاني في أنّ يركز على علاقة المخاطب بالخطاب، فيما نجد الحد الثاني فيه إبانة لطبيعة الخطاب بوصفه عملية تواصلية لها عديد السياقات، وعليه فالخطاب ليس مجرد نقل للمعلومات فحسب بل يجسد تواصلًا بين منتجيه.

فسر صاحب التحرير والتنوير الآية 20 من سورة "ص" "على أن الخطاب بلاغة الكلام وجمعه للمعنى المقصود بحيث لا يحتاج سامعه إلى تبيان." (عاشور، 1984، صفحة 229)

إنّ التركيز على بنية الخطاب ومدى تأديتها للمعاني المقصودة تبين أنّ ابن عاشور يرى فيه _الخطاب_ رسالة موجهة من باث إلى متلق .

2_1 الخطاب في الثقافة الغربية:

جاء في قاموس (Jean Dubois) أكثر من تعريف للخطاب نذكر منها: "يعد الخطاب في البلاغة سلسلة من التطورات الشفوية هدفها الإقناع أو التأثير وتكون منتظمة تبعًا لقواعد محددة." (Dubois & et autres, 2012, p. 150)

المعنى ينشأ من العلاقة القائمة بين الجمل المشكلة للخطاب ومنتجيه، لأن الهدف من الخطاب من منظور البلاغة هو الإقناع، وذلك لارتباطه بالسياق الاجتماعي والثقافي وهو ما يجعل سبل الإقناع والتأثير مرتبطة بالمجتمع وثقافته وتختلف باختلافه.

انتاج وتحليل الخطاب يرتبط بملايسات انتاجه أي بسياقه وهو ما ذهب إليه "Charroudeau": لا يمثل السياق مجرد إطار للخطاب، بل هو تحديد المعاني لا يتم خارج السياق علاوة على ذلك يحدد الخطاب سياقه ويتغير بتغير مقامات التلفظ. (Charroudeau & Dominique, 2002, p. 189)

يتفاعل الخطاب مع سياق انتاجه ولذلك فالعلاقة بينهما علاقة تكاملية، فالمعاني لا تنبع من الكلمات وحدها بل تتحدد من سياقاتها، كما يخلق تفاعل المشاركين في الخطاب توالد السياقات وتغيرها فهذا التفاعل هو عملية ديناميكية لإنتاج الخطابات و سياقاتها. رغم تعدد تعريفات مصطلح الخطاب إلا أن هناك عدة نقاط يمكن القول أنها خيوط ناظمة بين هذه التعريفات :

_ لا يخلو الإفهام والتأثير من عنصر القصدية فكل خطاب هو قصد لإيصال فكرة معينة .
_ يفترض الخطاب وجود منتجين ومتلقين له.

_ يصاحب عنصر السياق جميع الخطابات باعتبار كل واحد منهما سببا لتشكيل الآخر.

2_ التداولية:

إنّ الباحث في مجال التداولية يجد أنها جامعة لعدة علوم كونها متعددة النواة المعرفية لذلك كثرت تعاريفها نورد منها "التداولية هي المجال الذي يدرس لغة الخطاب التواصلية، وهدفها وصف التفاعل بين المعارف اللغوية التي تقدمها الوحدات اللسانية المختلفة والخبرات غير لغوية أو السياقية اللازمة لفهم الملفوظات." (Moeschler & Antoine, 2009, p. 18)

تتجاوز التداولية تحليل البنيات اللغوية بمعزل عن ظروف انتاج الملفوظات، فهي تسعى لكشف المعاني انطلاقا من التفاعل بين البنى اللغوية، والمعارف غير اللغوية فموضوعها هو الخطاب التواصلية . ويعرفها "Jean Aitchison": "التداوليات هي فرع من فروع علم اللغة يدرس تلك الجوانب من المعنى التي لم تفسرها الدلالة، فهي تختص بدراسة كيفية استخدام المتكلمين للغة بطرق لا يمكن كشفها من خلال البنى اللغوية لوحدها" (Aitchison, 2003, p. 97)

يدرس علم الدلالة علاقة العلامات اللغوية ببعضها، فيما تهتم التداولية بعلاقة اللغة بمستخدميها مع الأخذ بعين الاعتبار كل ما هو خارج النسق اللغوي من طرائق استخدام، ولا يتأتى هذا إلا بالنظر إلى السياقات غير لغوية. تبرز علاقة اللسانيات بالتداولية من خلال التواصل، إذ تدعو الضرورة إلى تفسير العلامات اللغوية داخل إطار تواصلية كفعل اجتماعي معقد، فالفعل اللغوي ليس مجرد بني بل يمثل حدثا تشكله التفاعلات الحياتية بكل أبعادها؛ حيث هو محور من محاور البحث التداولي كان هو الرابط بين اللسانيات والتداولية: "...والتواصل في النهاية يشكل سياقاً كلياً داخلياً وخارجياً، لغوياً وغير لغوي، ولا سبيل إلى تفسير الفعل اللغوي إلا بتوسيع الاعتبارات الإجرائية قدر الإمكان." (بوزغاية، 2020، صفحة 97)

2_1_ الحجاج :

يعد الحجاج من أهم القضايا التي اهتمت بها التداولية وذلك لسببين: "أنّ الأشكال اللفظية التي يتم انتاجها في الاستعمال اللغوي لا تخلو من الحجاج... والثاني أنّ الحجاج يفترض طرفي تواصل يقصد أحدهما إلى التأثير في الطرف الآخر بوجه من الوجوه." (بوزغاية، 2020، صفحة 155)

وعليه فإنّ اهتمام التداولية بالحجاج أنّه يشكل جوهر التواصل الذي لا يخلو من معان مقصودة، يُراد بها التأثير في المتلقي من قبل باث الخطاب .

يعرف طه عبد الرحمن الحجاج: "إذ حدّ الحجاج أنّه كل منطوق به موجّه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحق الاعتراض عليها." (الرحمن، 1998، صفحة 226)

تأسيساً على التعريف السابق فالحجاج عملية تواصلية قائمة على منطوق لفظي، وهو يكتسي طبيعة تفاعلية، وليس بالضرورة أن يكون الموضوع الذي طرحه مسلم به، بل يكون قابلاً للمناقشة والدحض بحجج مخالفة.

2_2 متضمنات القول:

في الكثير من الأحيان لا تعبر منطوقاتنا على كل مقاصدنا، ولكن المعارف المشتركة والانتماء إلى فئة مجتمعية محددة تجعل من إيصال المقصود ممكناً ولذلك تنقسم أقوالنا إلى أقوال صريحة، وأخرى ضمنية: "مفهوم تداولي إجرائي يتعلق برصد جملة من الظواهر المتعلقة بجوانب ضمنية وخفية من قوانين الخطاب، تحكمها ظروف الخطاب العامة كسياق الحال وغيره." (صحراوي، 2005، صفحة 30)

وتنقسم متضمنات القول إلى نوعين وهما الافتراضات المسبقة و الأقوال المضمرة "تشارك المحتويات الضمنية (الافتراضات المسبقة والأقوال المضمرة) في نقطة كونها من حيث المبدأ لا تشكل الغرض الحقيقي للقول بينما تتطابق المحتويات الصريحة من حيث المبدأ في أغلب الأحيان مع الهدف الأساس من إيصال الرسالة." (الحاج، 2015، صفحة 226)

ميزة الأقوال المضمرة أنها تُتخذ كوسيلة لإخفاء المعنى المقصود على سبيل المثال في المزاح قد يحمل معنا مضمرًا يفسر من خلال سياق الموقف وهذا المفهوم قابل للتأويل، بينما الافتراض المسبق لا يقبل التأويل ويبنى عليه القول.

3_ هوية إخوان الصفاء ومحتوى رسالة الطريق إلى الله:

3_1 من هم إخوان الصفاء:

من المعروف أنّ العصر العباسي أزهى عصور الحضارة العربية، وقد شهد عصر المأمون انفتاحاً على ثقافات أمم غير عربية، وترجمت خلال هذا العصر مختلف المؤلفات الفلسفية والفكرية لكن صاحب هذا التطور فساداً في البيئة الاجتماعية العباسية وهو من الأسباب التي ساهمت في ظهور "جماعة إخوان الصفاء وخلان الوفاء" في البصرة: "...جمعية سرية في مدينة البصرة عرفت بجمعية إخوان الصفاء... وكانت تنعى على العصر ما بلغته في الحالة الاجتماعية من فساد وتفسخ وتدعو إلى الإصلاح بالألفة والتعاون." (اليازجي، 1979، صفحة 213)

فظهر هذه الجماعة كان هدفه إصلاحياً بالدرجة الأولى. أطلقوا على أنفسهم عديد الألقاب منها: أهل العدل، أبناء الحمد... وغيرها أما تسميتهم الشائعة إخوان الصفاء وخلان الوفاء _ "فالأغلب أنها مأخوذة من كتاب "كليلة ودمنة لابن المقفع" من قصة الحمامة المطوقة" (معصوم، 2002، صفحة 68)

عمدت هذه الجماعة إلى إخفاء هويات أصحابها فكان هدفهم نشر العلوم: "فربطتهم لم تكن رابطة جنس أو دين، أولغة، بل رابطة ثقافة وعلم." (الطيباوي، 1963، صفحة 81)

يرجع سبب اعتماد طابع السرية لنشاط هذه الجماعة، بحسب ما ذكر المؤرخون هو الخوف من النظام السياسي أو أن يكفرهم رجال الدين، أو من سخط العامة.

وحاصل القول وعلى الرغم من تضارب الآراء حولهم إلا أنهم شكلوا جماعة فكرية فلسفية، ويرون في الفلسفة مشروعهم العلمي.

3_2 محتوى الرسالة :

رسالة ماهية الطريق إلى الله هي الرسالة الثالثة والأربعون موضوعها الأساس السير الروحي نحو الله عزّ وجلّ، تظهر في الرسالة نظرة إخوان الصفاء إلى ثنائية النفس والجسد، فعندهم تقديس للنفس وعدّها جوهر نوراني سماوي قادر على إدراك الحقائق، في حين يمثل الجسد كيان أرضي ثقیل يعيق النفس إذا طغى عليها.

والسبيل للوصول إلى الله يكون تبعاً لشرطين أولاهما تهذيب النفس بإبعادها عن الجهالات وحثها على العلم والمعرفة. وثانيهما استقامة المنهج ويتم ذلك بالجمع بين العلم والعمل، واتباع نهج الأنبياء والحكماء مع الاعتماد على العقل والوعي معاً. تحذّر الرسالة من خطورة الانشغال بالدنيا لأنّ ذلك يعمي القلب عن الآخرة، كما أنّ فساد الرأي يبعد عن الحق.

ثانياً: الشق التطبيقي:

تتجسد فاعلية الأداء الكلامي بارتكازها على التأثير والبرهان لذلك نجد أن أي خطاب لا يخلو من الآليات الحجاجية يقول ازوالد ديكر: "لا تقتصر القيمة الحجاجية لأي ملفوظ لغوي على مجرد حمل المعلومات أو نقلها، بل تشمل - فوق ذلك - مكونات لغوية دقيقة كاللورفيمات (الوحدات الصرفية)، والتعايير الاصطلاحية، والتراكيب النحوية، التي تُشكّل بمجموعها إطاراً توجيهياً حجاجياً يُضاف إلى المحتوى الإخباري الصريح." (Ducrot, 1980, p. 15)

1_ حجاجية الإشارات :

لا يخفى على الباحث في مجال التداوليات أنّ مبحث الإشارات كان البداية في مجال التداولية اللسانية وكان "لشارل موريس" السبق للتنويه إليها: "الإشارات عبارة عن علامات محيلة غير منفصلة عن فعل التلفظ، وهو فعل يقتضي متلفظاً يتوجه بخطابه إلى مخاطب، ضمن إطار زمني ومكاني محدد." (ختام، 2016، صفحة 76)

ترتبط الإشارات بين البنية اللغوية للخطاب، والواقع التواصل مما يجعلها أداة لفهم كيفية بناء المعاني في التفاعل الخطابي، وهي أصناف.

1_1 حجاجية الإشارات الشخصية:

تكرر الفعل الكلامي "اعلموا أيها الإخوان أيدكم الله وإيانا بروح منه" (الوفاء، 1995، صفحة 07) سبع مرات أي قبل كل مقطع من مقاطع الرسالة، حيث يطرح كل مقطع فكرة معينة، وهو ليس أمراً مباشراً بل جاءت هذه الصيغة للفت انتباه المتلقي وتحفيزه على طلب المعرفة، قام الخطاب على طرفي تواصل وهما:

_الضمير الجمعي للمتكلم والذي يحيل إلى إخوان الصفاء (منتجي الخطاب)، ولم يرد بصفة صريحة بل نابت عنه _ "نا الفاعلين" في الملفوظ "إيانا" وعليه نجد أنّ انشاء فعل الأمر "اعلموا" صادر عن ذات جماعية وهي "نحن". أحالت "واو الجماعة"، وكاف الخطاب الجمعية، ولفظة الإخوان "إلى متلقي الخطاب.

لا تنتمي الإشارات إل ذات الطبقة، حيث ميز "إيميل بنفنيست" بين نوعين بحسب طبيعتها: "إذ تتميز الإشارات الذاتية بطابع الحركية وأنه بإمكان أي متحدث أن يحيل من خلاله إلى خطابه الخاص وكذلك الشأن بالنسبة لضمير المخاطب، فيما لا يقترن ضمير الغائب بواقعة كلامية محددة أو سياق محدد لذلك لاحظ أن طبيعته موضوعية" (Benveniste, 1966, p. 252_253).

بالموازاة مع رؤية "بنفنيست" نجد أنّ التفاعل الخطابي وحركيته بين المرسل والمرسل إليه، انبنى بين ضميرين ذاتيين الغاية منه _ التفاعل الخطابي _ بناء هوية جماعية كما خلق انتماءً مغلقاً بين الجماعة، ومتلقي خطابهم .

وضعت "روبين لايكوف" قواعداً ثلاث للخطاب تفرعت عن مبدأ التأدب وهي: قاعدة التعفف، وقاعدة التشكك، وقاعدة التودد، وآخر هذه القواعد مفادها أنّ يعامل المتكلم المُخاطب معاملة الند للند بغرض خلق الإطمئنان والأنس بينه وبين سامعه" (الرحمن، 1998، صفحة 241)

وعليه فمجيء النداء بحذف أداته واستخدام صيغة: "أيها" التي تُستخدم لنداء القريب المعرف وهدف توظيف هذه الصيغة خلق الألفة، وتعزيز الانتماء ذلك أنّ الغاية البلاغية تقرب المتخاطبين، ففي هذا المقام يبدو الخطاب وكأنه صادر من داخل الجماعة وموجه إليهم واختيار لفظة: "الإخوان" تحديداً لجعل المخاطبين يشعرون أنّهم من ذات المجتمع الفكري فليّن الخطاب كفيل بجذب المتلقي، كما أنّ كسر الحواجز سبيل لجعل الخطاب أكثر إقناعاً وتأثيراً.

إنّ الاشتراك في الغاية والهدف كفيل بدعم الرأي المُراد الإقناع به ففي قولهم: "أيدكم الله بروح منه وإيانا" نجدهم قدموا المخاطبين على أنفسهم، وهو ما يبرز الاهتمام بهم والدعاء لهم ولفظة "إيانا" المحيلة إليهم تعكس تواضع الجماعة وأنهم يشتركون في الغاية ذاتها وهي طلب التأييد من الله عزّ وجل.

والعبارة ككل تشير ضمناً أنّ المعرفة مرتبطة بالتأييد مما يحث المتلقي إلى المضي في طريق المعرفة كجزء من طريق التقرب إلى الله.

1_2 حجاجة الاشارات المكانية:

يقدر إخوان الصفاء مكانة النفس مقارنة بالبدن وتمثلت هذه الرؤية بإقامة ثنائية ضدية بين (النفس/البدن)، وبين (السماء/الأرض) وجاء العنصر الإشاري "هناك" ليحيل إلى "دار السلام" وهي إحالة داخلية، وهي إسم إشارة محيل إلى مكان بعيد، "وعند بعض الباحثين أنّ العناصر الإشارية قد تنقل إلى ما يسمونه المسافة العاطفية...وهو قريب مما أسماه علماء المعاني عندنا التحقير بالقرب والتعظيم بالبعد" (نحلة، 2002، صفحة 23)

الهدف من إقامة هذه المقارنة بين البدن والنفس هو الحث على ترك ملذات الحياة كما أنّه دعوة ضمنية إلى تحصيل العلم والمعرفة لأنها السبيل للوصول إلى دار السلام.

جاءت هذه المقارنة بإقامة جملة من الثنائيات الضدية:

_أرضية/سماوية:

يترفع الإخوان عن عالم المادة يقتزن الجسد بالعالم السفلي الذي يتسم بالثقل، والفساد والمادة ككل منحوسة في الزمان والمكان وبذلك تكون الأرض سجن للجسد، فيما يمثل العالم العلوي المطلق فضاء مطلقاً منفصلاً عن قيود المادة إذ يتميز بالنورانية والخفة والحركة.

_خفيفة/ثقيلة:

ترمز إلى الجاذبية المادية التي تقيد الجسد في الأرض (إشارة مكانية إلى الأسفل) أما خفة النفس فتعنيها على الارتقاء إلى السماء. يخضع العالم المادي إلى حتمية الفناء لارتباطه بدروء الحياة المتمثلة في النشأة النمو ثم الاضمحلال والموت وهذا حال البدن، أما النفس فهي متحررة غير خاضعة للتغير الزمني وهو ما يمنحها الخلود السماوي.

في هذا التباين الذي وضعه الإخوان يظهر لنا تشابههم مع النظرة الصوفية للروح والجسد غير أنه لا يمكن عدّهم طريقة من طرائق الصوفية وذلك لاختلاف المنهج بينهما (الصوفية وإخوان الصفاء).

لم تكن الإشارات المكانية مجرد أوصاف فيزيائية بل كونت خريطة وجودية بين العالم السفلي عالم المادة، وبين عالم الروح وقد استخدم هذه المحيلات لبناء هرم قيمي يضع المادة في أدنى الدرجات، والروح في قمة الوجود ويكون ذلك بتحريك النفس رمزياً من الأسفل إلى الأعلى عبر إدراك صور الأشياء وهو ما يعكس فكرة الصعود الروحي نحو الكمال.

2_2 تحليل البنى الحجاجية:

يتسنى للباحث فهم الاستراتيجيات الموظفة في الفعل الحجاجي بالاستناد إلى ما جاءت به التداولية المدمجة وأهمها: المواضع الحجاجية، والاتجاه الحجاجي، والروابط الحجاجية، والعوامل الحجاجية، والتساند والتعارض الحجاجيين، والفئة الحجاجية، والارشادات الحجاجية، والعلاقات الحجاجية. وعليه سنعتمد في هذا المقام على هذه الآليات لكشف الأبعاد الحجاجية التداولية في هذه الرسالة.

1_2_2 **الموضع الحجاجي:** مفهوم مستمد من الإرث الأرسطي، وهو مجموع المبادئ والمعارف التي تلقى قبولا من قبل فئة مجتمعية والتي من خلالها يمكن ربط مقدمات بنتائج" (صديقي، 2018، صفحة 137)

تبعاً لهذا الطرح فالجهاز الحجاجي يتكون من مقدمات موصلة إلى نتيجة تربط بينها روابط حجاجية إلا أنّ النتائج قد لا تظهر بشكل صريح وتفهم بحسب اشتراك أطراف الخطاب في الثقافة الجمعية.

يقولون: "...وإنّ مثلها في إدراكها صور الموجودات من المحسوسات والمعقولات كمثّل المرأة، فإنّ المرأة إذا كانت مستوية

مجلوة الوجه، تترأى فيها صور الأشياء الجسمانية على حقيقتها، وإذا كانت المرأة مُعوجّة الشكل، أُرَت صور الأشياء

الجسمانية على غير حقيقتها، وأيضاً إن كانت المرأة صدئة الوجه، فإنّه لا يترأى فيها شيء البتة."

(الوفاء، 1995، صفحة 7_8)

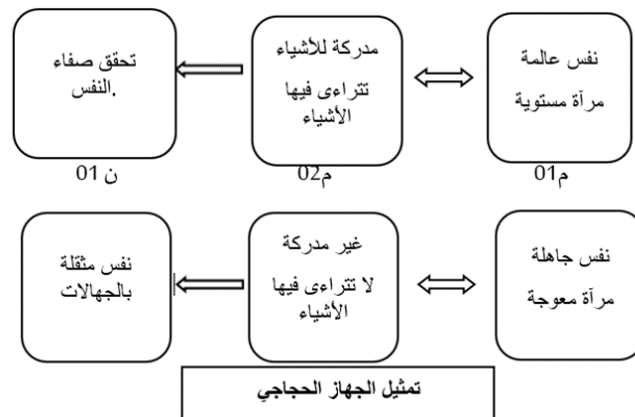
في المقول المذكور سالفا وظف الإخوان التشبيه بين النفس الصافية والمرأة المستوية حيث أنه كما تعكس المرأة صور الأشياء على حقيقتها كادراك النفس للموجودات بلا تشويه وصفاء النفس يكون بترفعها عن الاعمال السيئة انبنى الحجاج في هذا المقام من خلال إقامة علاقة بين صفاء النفس ودقة الادراك وتوظيف التشبيه بين شيء محسوس وهو المرأة الصافية، وشيء مجرد وهو صفاء النفس وفي هذا نجد قياس نظير بنظير آخر حيث كما يتحقق فعل تجلي الأشياء على صورته الحقيقية إذا كانت صافية يكون إدراك النفس لما حولها، كما أنّ ضرب المثل بالمرأة هو استدلال مباشر ساق صورة معروفة لدى العامة وهي (صفاء المرأة) بصورة مجهولة وهي (صفاء النفس) فقيام الاستدلال على التمثيل في رأي بيرلمان: "...نقلا للبنية والقيمة معا" وفي ذلك دعوة ضمنية إلى العمل على تنقية النفس ليكون إدراكها صحيحا، إذ الادراك ليس مجرد استقبال سلبي بل هو فعل نشط مرتبط بحالة النفس .

واللافت للانتباه كثرة توظيف المؤكد "إنّ" وسبب ذلك هو السعي إلى اقناع متلقي خطابهم بالفكرة المحورية المتمثلة في تنقية النفس لتكون نفسا عالمة .

وعليه نجد أنّ البنية الحجاجية تساوقت فيها المقدمات المتمثلة في التشبيه التام غير أنّ التوجيه الحجاجي لم يأت بصورة جلية وهي الدعوة الصريحة لتطهير النفس بل جاءت في شكل عرض بين أمرين متضادين وما ينتج عن كل منهما .

ونوع الحجة هنا هو حجة توجيهية حيث تم تقديم ما ينتج عن صفاء النفس وما ينجم عن فسادها وربطت بين المقدمات علاقة ترابطية، وفق سلم حجاجي معجمي.

2_2_2 تمثيل البنية الحجاجية:



طبيعة العلاقة التي ربطت بين المقدمات علاقة تكافؤ حيث أنّ النفس العالمة بالضرورة تكون درآكة وعليه تكون نفسا عالمة إذا كانت مدركة، ولتقريب الصورة جيء بمثال المرأة وهذه المقدمات ربطت بينها وبين نتائجها علاقة استلزام نفس عالمة نفس درآكة وبالتالي نفس صافية الذات، نفس جاهلة غير مدركة تبقى مثقلة محجوبة عن الادراك وقد تتابعت الحجج في هذا المقول وكانت الحجة تجريدية كثرت فيها الجمل الشرطية المسبوقة

ب "إذا" ففي البنية الصغرى الأولى التي تصف النفس الصافية جاء الفعل في زمن المضارع كما هو معروف أنّ المضارع له دلالة استمرارية الحدث، فيما جاء الفعل الواقع في جواب الشرط للبنية التي تصف النفس الجاهلة في الماضي الذي يقتضي وقوع الحدث وانتهائه قبل زمن المتكلم.

2_2_3 السلاسل الحجاجية:

تعد نظرية السلاسل الحجاجية آلية إجرائية جاءت بها اللسانيات التداولية في مجال الحجاج، لأن الحجاج في نظر كل من "أزوالد ديكر" و"جان انسكومبر" متمركز في الخطاب ويرتبط باللغة وأبنيتهما، وقد صنف "ديكر" كتابا موسوم ب"السلاسل الحجاجية".

ينبني السلم الحجاجي من خلال ترابنية العلاقات في الجهاز اللغوي، فالسلم الحجاجي المعجمي يقوم على الوظيفة المرجعية للغة، كما نجد السلم الحجاجي الصرفي قوامه الأبنية الصرفية المختلفة وذلك بحسب قوتها، كما توجد سلمية

النظام البلاغي وتتفاوت الأضراب المجازية من حيث درجتها في السلم الحجاجي. تختلف النفس العالمة عن النفس الجاهلة من منظور إخوان الصفاء وقد جاءت محاجتهم وفق سلم معجمي بإقامة مقارنة بينها جاءت فيه الحجج متضادة:

"فهكذا أيضا حال النفس، فإنها إذا كانت عالمة ولم تراكم عليها الجهالات، طاهرة الجوهر لم تتدنس بالأعمال السيئة، صافية الذات لم تتصدأ بالأخلاق الرديئة، وكانت صحيحة الهمة لم تعوج بالآراء الفاسدة، فإنها تترأى في ذاتها صور الأشياء الروحانية التي في عالمها، فتدركها النفس بحقائقها، وتشاهد الأمور الغائبة عن حواسها بعقلها وصفاء جوهرها، كما تشاهد الأشياء الجسمانية بحواسها، إذا كانت حواسها صحيحة سليمة. وأما إذا كانت النفس جاهلة غير صافية الجوهر، وقد تدنست بالأعمال السيئة أو صدئت بالأخلاق الرديئة أو اعوجت بالآراء الفاسدة واستمرت على تلك الحال بقيت محجوبة عن إدراك حقائق الأشياء الروحانية، وعاجزة عن الوصول إلى الله تعالى ويفوتها نعيم الآخرة".

(الوفاء، 1995، صفحة 08)

هناك دعوة ضمنية إلى طلب العلم والمعرفة، وجاء هذا التوجيه غير مباشر بإقامة مقارنة بين النفس العالمة والنفس التي تراكت عليها الجهالات، إذ أن الأخيرة جهالتها تحجب عنها إدراك ما حولها وعليه نجد أن الحجج جاءت مترتبة في سلمين معجميين متضادين: "...وأساس هذه السلمية هي قيام المعجم على ضرب من التقابل، ونقصد بالتقابل ذلك الاسترسال في معاني المفردات.... والمفيد من كل هذا أن المعجم بأقسامه تحكمه سلمية تؤكد الوظيفة المرجعية للغة".

(الناجح، 2011، صفحة 123_124)

تلعب الوظيفة المرجعية دورا مهما في ترتيب الحجج من الأضعف إلى الأقوى، ومنه نجد أن دعوة إخوان الصفاء إلى العلم جاءت من خلال المقارنة بين النفسين العالمة والجاهلة وما تجنيه كل منهما:

_ النفس العالمة: صافية الذات، صحيحة الهمة، مدركة للأشياء الروحانية.

_ النفس الجاهلة: غير صافية، مدنسة بالأعمال السيئة، معوجة بالآراء الفاسدة، محجوبة عن إدراك حقائق الأشياء. الملاحظ في هذه المقارنة وجود فئتين حجاجيتين متضادتين كل فئة منهما تخدم نتيجة معينة فالأقوال (صحيحة الهمة، صافية الذات، مدركة) جاءت متساوقة لوصف النفس العالمة وكذلك الشأن بالنسبة للأقوال (غير صافية، مدنسة معوجة، محجوبة عن إدراك الحقائق) جاءت لوصف النفس الجاهلة.

وعليه بُني الحجج وفق سلمين حجاجيين متعاكسين في المقدمات والنتيجة لتكون الغاية المراد الاقناع بها طلب المعرفة لأنها السبيل للفوز بنعيم الآخرة، فمن خلال الفرق بين صفات النفس العالمة والنفس الجاهلة تظهر درجة قوة الأدلة المقدمة وصدقها لتحقيق الهدف المقصود وهو الاقناع بطلب العلم. بأقل الحجج تأثيرا هي الحجج البعيدة عن التجربة الحسية كما في قولهم: (صافية الذات/ غير صافية) فصفاء النفس لا يظهر عيانا للمتلقى إنما هو معنى تجريدي.

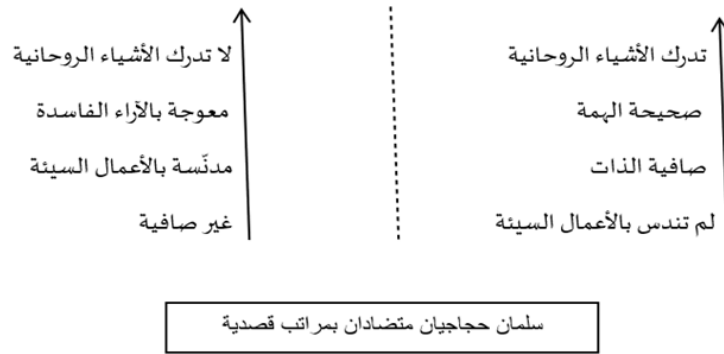
فيما نجد الحجج الأكثر تأثيرا هي القريبة من النتيجة (مدركة للأشياء/ محجوبة عن إدراك الحقائق). ينشأ التدرج في اللغة بحس ثلاث أشكال وهي:

_ المراتب المتضادة: "حيث يتقابل طرفا السلم بتدرج عكسي"

_ المراتب الكمية: "حيث تتماثل تدرجات طرفي السلم الحجاجي، وتناسب طردا عناصر كل المحورين المتقابلين."

_ المراتب القصدية: "...حيث ينشئ المتكلم سلما حجاجيا خاصا به بناء على قصده من الكلام." (بوزغاية، 2020، صفحة 162_163_164)

يمكن التمثيل للسلم الحجاجي لهذه البنية كما يلي:



تنتمي الحجج في كل من السلمين إلى فئة الاخباريات، ولا تقع على درجة واحدة من القوة والتأثير وهي مراتب قصدية فصفاء الذات مرهون بعدم تدنسها بالأعمال السيئة، وصحة همتها سبيل لإدراك الأشياء الروحانية، وجاء الرابط الحجاجي أما وهي حرف شرط وتفصيل ليفصل بين السلمين الحجاجيين المتضادين والغرض من إقامة هذه المقارنة الإقناع بضرورة تطهير النفس للفوز بنعيم الآخرة فهناك تفصيل للحجج إلا أن الدعوة لم تأتي صريحة ونوع الحجة في هذا المقام حجة تقويمية، مطبوعة وفق "قانون تبديل السلم" (النفى)

"وقوام هذا القانون مبدأ النقيض، أي إذا كان قول ما يؤدي إلى نتيجة فإن نقيضه يؤدي إلى نتيجة مضادة" (الرحمن، 1998، صفحة 278) والغاية من انتاج هذا الخطاب هو الدعوة إلى تطهير النفس من أجل الفوز بنعيم الآخرة.

خاتمة:

الهدف من تأسيس جمعية إخوان الصفاء وخلان الوفاء هو هدف إصلاحي، لذلك كانت رسالة الطريق إلى الله خطابا توجيميا الغاية منه نشر الوعي في وسط العامة لإحداث التغيير.

وظيفة الإشارات تتمثل في تعيين أطراف الخطاب، كما أن هذه الرسالة موجهة إلى عامة الناس لأن الرسالة ابتدأت بالفعل "اعلموا" على اعتبار أن الخطابات في هذه المدونة قسمين، قسم موجه للعامة، والآخر موجه للخاصة من الناس وهذا التقسيم بناء على المتلقين.

عملت الإشارات على بناء هوية جمعية بين الإخوان ومتلقي خطاباتهم وذلك باستخدام المحيلات: "كاف الخطاب في الفعل أيدكم" والتي سبقت المَحِيل إلى الجماعة "إيانا" ومن هنا خضع الخطاب لمبدأ التودد، كما نلمس لين المفوضات المشكلة للخطاب مثل: أيها الإخوان" وعليه لم تتوقف وظيفة الإشارات الشخصية على تحديد أطراف التواصل بل ساهمت في زيادة القوة الحجاجية.

لم تكن الإشارات المكانية مجرد وصف للفضاءات المكانية بل بيّنت توجُّه الإخوان في تقديسهم للروح عن الجسد وإقامة الثنائيات الضدية (أرضي/سماوي) يقابلها (جسدي/روحي)، وقد تولد هرم قيمي بين عالم المادة، والذي يحيل إليه الرمز الإشاري "هنا" وعالم الروح الذي يمثل مكانة سامية وأشار إليه ب"هناك" وحركية هذه المحيلات سواء الشخصية أو المكانية داخل الخطاب جعلت منه يأخذ أبعادا حجاجية ضمنية.

تباينت البنى الحجاجية بين التصريح والتضمين، فغالبيت المقدمات سيقّت بشكل أفعال كلامية مباشرة كثرت فيها الاخباريات، وتمّ عرض الحجج على شكل مقارنات بين صورتين متضادتين، بإقامة علاقة تشبيهية بين المرأة الصافية والمرأة الصدئة، وهي آلية استدلالية ربطت حقائق من العالم المحسوس لتبيين مفهوم مجرد وهو النفس وهو ربط يحتكم إلى المنطق وهو ما يعكس تأثر الإخوان بالفلسفة اليونانية، ولم يرد في الرسالة نص صريح يدعو إلى تطهير النفس

لذلك كان التوجيه ضمنيًا يُستنتج من خلال المقارنة بين مجموع الحجج المقدمة لكل جهاز حجائي، تنوعت فيه الحجج بين التوجيهية والتقويمية.

عُرضت أفكار الرسالة بعقد مقارنات بين أشياء متضادة، مع كثرة المترادفات والجمال على المعنى الواحد: لذلك جاء السلم الحجائي محكومًا بقانون النفي ولم تأت الحجج على درجة واحدة من القوة والتأثير وعليه جاء السلم الحجائي مُشيد على مراتب قصدية.

الإحالات والمراجع:

- 1_ إخوان الصفاء وخلان الوفاء: رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء، إعداد وتحقيق: عارف تامر، منشورات عويدات، بيروت / لبنان، ط01، 1995.
- 2_ بدر الدين محمد بن بهادر الزركشي: البحر المحيط في أصول الفقه، دار الصفوة للطباعة والنشر، الغردقة/ مصر، ط02، 1992.
- 3_ جواد ختام: التداولية أصولها واتجاهاتها، دار كنوز المعرفة، عمان/الأردن، ط01، 2016.
- 4_ ذهبية حمواالحاج: التداولية واستراتيجية التواصل، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة/مصر، ط01، 2015.
- 5_ رزيق بوزغاية: كتاب التداوليات، دار نوران للنشر والتوزيع، تبسة/الجزائر، ط01، 2020.
- 6_ طه عبد الرحمن: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/المغرب، ط01، 1998.
- 7_ عبد اللطيف الطيباوي: محاضرات في تاريخ العرب والإسلام، دار الأندلس، بيروت/لبنان، ج01، 1963.
- 8_ عزالدين الناجح: العوامل الحجائية في اللغة العربية، مكتبة علاء الدين، صفاقس/تونس، ط01، 2011.
- 9_ فؤاد معصوم: إخوان الصفاء فلسفتهم وغياتهم، دار الهدى للثقافة والنشر، الجزائر، ط01، 2002.
- 10_ كمال اليازجي: معالم الفكر العربي، دار العلم للملايين، بيروت/لبنان، ط06، 1979.
- 11_ محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، ج23، 1984.
- 12_ مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، دار الطليعة، بيروت/لبنان، ط01، 2005.

13_ Émile Benveniste: Problèmes de linguistique générale ; tome 01 ; édition Gallimard ; 1966.

14_ Jacques Moeschler, Antoine Auchlin: Introduction à la linguistique contemporaine, 3ème édition, Armand Colin, Paris, 2009.

15_ Jean Aitchison: Linguistics, N.T.C, publishing, U.S.A, 5ème, édition, Paris, 2003.

16_ Jean Dubois: Le dictionnaire de linguistique et des sciences du langage, Larousse, Paris, 2012.

17_ Oswald Ducrot: Les échelles argumentatives, édition, de minuit, Paris, 1980.

18_ Patrick Charoudeau, Dominique Maingueneau: Dictionnaire d'analyse du discours, éditions du seuil, Paris, 2002.

المقالات:

- 1_ عبد الوهاب صديقي: تحليل الخطاب السياسي حجائيا/بلاغيا، مجلة روابط، المجلد 01، العدد 02، 2018.